الفصل الثاني

# خيبر ومحيطها

غمرني شعور وأنا في خيبر بأنني على أرض مقدسة، وطأها تشارلز داوتي قبل أكثر من سبعين عاماً قبلي، ووصفها بالسحر والتميز ولم يترك شيئاً يذكر ليقال عن هذه المستوطنة القديمة، التي لم تتغير إلا قليلاً منذ أيام زيارته. لقد بقيت في الحقيقة سليمة تقريباً بدفاعاتها الطبيعية ضد السيارات، وبغض النظر عن حقيقة انهيار بعض المباني التي رآها داوتي إلى أنقاض، فإن التغيير الوحيد الذي يتمثل في نمو ضاحية صغيرة على الهضبة التي تشكل الحافة الخارجية الجنوبية للحوض الذي تقع فيه هذه الواحة.

وهنا يتوقف مرور السيارات، وعلى الجبل نشأ حي تجاري صغير، فيه دكاكين ومستودعات حول ساحة السوق، ومنازل سكنية، أحدث طرازاً من تلك التي في الحارات القديمة، وتنتشر بجانبيها على طول الأرض المرتفعة من الهضبة. وهنا أقام الكثير من تجار المدينة وغيرها فروعاً لمحلاتهم وبيوتاً لزيادة وترويج مصالحهم التجارية. ومن المعتقد بصورة عامة أن هذا المكان ملائمٌ صحيّاً أكثر من الأرض المنخفضة والرطبة، إذ يقل فيه البعوض. وكان

ذلك أمراً نسبياً تماماً، حيث إن البيت الجديد الذي حدد لإقامتنا خلال زيارتنا كان مليئاً بهذه الحشرات المخيفة، بل ولم يكن فيه دورة مياه، ناهيك عن الحمام أو مرافق الصرف الأخرى من أي نوع كانت.

وفور وصولنا، تركنا السيارات في عهدة سائقينا وخدمنا، ومضينا فوراً للتشرف بالسلام على أمير المنطقة. وكان طريقنا يمر خلال بساتين من النخيل الكثيفة ويمر بجوار ثلاث من العيون التي توفر المياه للبساتين، حتى أدى بنا إلى سفح صخرة القلعة. وقد تسلقناها بدرجٍ حادٍ وصعب، لنجد أنفسنا أمام مكتب وسكن الأمير، الذي وقف عند بابه الخارجي ليرحب بنا بلطفٍ موروث من الزمن القديم.

لقد كان حمود بن سيف، وهو أصلاً من سكان حائل، رجلاً نشيطاً في السبعين من عمره، وظل يحكم خيبر لنحو عشر سنوات، ويبدو أن له معرفة جيدة جعلته يسيطر على منطقته، التي تمتع بالسفر والتنقل فيها أكثر من غيره من الموظفين العاديين ومسؤولي المناطق. وكان يساعده اثنان من أولاده الكبار، وهما عبد الكريم وإبراهيم، وكلاهما عضو في هيئة موظفيه يتلقيان أجراً على أعمالهما. وكان الأول مسؤولاً عن منطقة قبلية صغيرة في إمارة جيزان عام ١٩٣٧، عندما كان يرافقني في رحلتي لمسح ذلك الجزء من الحدود السعودية

اليمنية، وقد رأيت فيه ممثلاً حكومياً كفئاً ومتعاوناً في منطقة قبلية حساسة. وقد تحدثنا عن تلك الأيام، وعن المناطق التي نود أن نكتشفها الآن، بينما كانت فناجين القهوة تدور علينا. وغادرت مضيفي بشعور الواثق من أن طلباتي سوف تجاب بالكامل. وعدنا إلى الشريف بالطريق الذي أتينا به، ودخلنا المساكن المخصصة لنا في أحد المباني الجديدة تحت الإنشاء، والتي تخص تاجراً من المدينة يدعى حسن غوث وأخذت غرفة كبيرة تفي بمعداتي الكثيرة، بينما ازدحم رفاقي جميعاً في غرفة أخرى لمزيد من الدفء حول موقد القهوة الكبير، والتي جلسوا فيها يحتسون مشروبات الضيافة ويقابلون الزوار من القرية ليلاً ونهاراً.

وفي المساء، بعد غروب الشمس، مشينا مرة أخرى إلى قلعة مرحب ليقابلنا الأمير بحسن الضيافة بتقديم وليمة تتناسب وكرم الأمير ومقدار الضيوف. فيها الأرز ولحم الغنم والوعل، مع الأطباق الجانبية العادية. وفي زمن الأتراك، وربما خلال زمن زيارة داوتي كانت قلعة مرحب أنقاضاً متهدمة وكان مقر الحكم يقع في مبنى يسمى قصر الصفصافة، وهو الآن مهجور في حالة تهدّم، في الأرض المنخفضة بين أشجار النخيل المرتفع الخارجي من الحوض الرئيس، قرب عين تحمل نفس الاسم. بيد أنه تحت الحكم السعودي، وخلال الثلاثينيات (١٩٣٠م) كان العمل قد بدأ في ترميم

قلعة مرحب لتستعيد مجدها القديم، بطلب من الحاكم الذي فضل أن ينام في راحة نسبية في ذلك المكان المرتفع كثيراً عن مستنقعات الواحة الموبوءة بالبعوض.

وخلال العشاء وبعده كان الحديث يدور حول موضوعات مختلفة، منها التاريخ التقليدي لخيبر، التي غزا الرسول (صلى الله عليه وسلم) شعبها اليهودي. وقد وقعت المعركة الحاسمة في موقع قرية أم كدا، على بعد ميلين تقريباً إلى الجنوب - الغربي من القرية الكبرى، قرية البشر، وعلى أرض مرتفعة على كلا جانبي وادٍ يجري إلى الأسفل عبر الحرة ليتصل بروافد أخرى من وادي الغرس وهناك مسجد عادي يبين المكان الذي وقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلال الاشتباك، في حين تم دفن شهداء المسلمين الذين سقطوا في القتال في مقبرة أطلق عليها اسم مقبرة الشهداء في منطقة قرية بشْر، وفي أرض مستنقعات مالحة ترويها بسخاء عيون كثيرة. والأرض المرتفعة من الحرة المحيطة بحوض خيبر تتناثر فيها الكثير من الأسوار (زرائب)، المشيّدة جدرانها من حجارة البازلت المركّبة فوق بعضها بطريقة غير منتظمة لتشكل مجمعات سكنية غير مسقوفة للبدو في أثناء زياراتهم السنوية لخيبر لجمع نصيبهم من المنتجات الممتازة من بساتين النخيل الغنية. وهؤلاء البدو يتقاسمون ملكية هذه البساتين مع العبيد الذين يقومون بجميع أعمال الزراعة

في الحوض الموبوء بالملاريا على نفقتهم الخاصة، في حين أن البدو ليس لهم دور في مثل هذه الأعمال إلا جمع نصيبهم المقرر. وإذا قدرنا عدد البدو من خلال عدد الزرائب، التي تعرف باسم المرابط (أي الأسوار) فلابد أن يكون التدفق السنوي للبدو كان بأعداد كبيرة. وتبدو هذه المساكن للوهلة الأولى، وبعضها لا يزيد حجمه إلا قليلاً عن الحفر الفردية للجنود في ميدان القتال، كأنها صممت لتزويد خيبر بنظام دفاعي في العمق ضد هجمات البدو، على الرغم -كما أوضحت- من أن غرضها الحقيقي كان عكس ذلك تماماً وهو توفير السكن لهؤلاء الذين لا يرغب أحد في غزواتهم على الدوام. والحكومة، بالطبع، تأخذ العُشر من إجمالي الإنتاج في الواحة قبل تقسيم ما تبقى من الرديء منه بين المشتركين في الملكية، وفي مقابل هذه الضرائب لا تفعل شيئاً على الإطلاق لتحسين أحوال وحظوظ كثير من البشر البائسين والذين يقاسون منذ أمد طويل.

وفي الأزمنة الأخيرة، أحياناً، يقوم الأمريكيون وبعض الخبراء الآخرين، ومنهم بعض الأطباء المصريين بزيارة خيبر لإعداد تقارير عن إجراءات القضاء على البعوض وتطوير مرافق الري في المنطقة. بيد أن البعوض لا يزال متفشياً كالمنتصر في هذه المعركة ولا يزال الماء يتدفق خارجاً من الأرض السبخة كما أراد له الله منذ بداية الزمان.

وبغض النظر عن رواتب ومخصصات المسؤولين الحكوميين، والشرطة، والموظفين الآخرين، الذين لا يقبضون رواتبهم أبداً بصورة منتظمة، إذ أحياناً يمكثون شهوراً بلا رواتب، فإن خيبر لم تر شيئاً من الثروة الهائلة التي صبها تدفق البترول في خزائن المملكة. حتى الأمراء المحليون في هذه المناطق النائية المهملة من الدولة يعترفون أحياناً برأيهم في سوء أنشطة الحكومة المركزية.

وبعد تناول الغداء في مسكننا يوم وصولنا، قضيت العصر في بحث مكثف عن النقوش والرسومات الصخرية على طول خط جرف الدنانة (التي تطل على عين إبراهيم) والصفصافة (فوق الحصن الذي يحمل نفس الاسم). وقد رافقني ويبان وعياض في هذا البحث، ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا جزءاً عظيماً من سكان الواحة، بما فيهم -كما يبدو بوضوح- كل شباب خيبر، وهم يلتفون حولنا توقعاً لرؤية حدوث بعض المعجزات الخارقة، وقد عرضت بصورة غبية نسبياً جائزة مقدارها ريال لمن يقدم أي معلومات تقودني إلى نقوش قديمة في هذه المنطقة، على الرغم من أنني سرعان ما قلت لرفاقي، بعد أن دفعت مقابل ما حصلت عليه، إنني لن أدفع بعد الآن لأي صور أو خربشة عربية عادية. فقد كانت الجُرف تعج بهما وما كنت أبحث عنه هو النصوص الثمودية أو العبرية، وبينما حصلت بالفعل على حصيلة صغيرة مخيبة للآمال

من النوع الأول، فلم يكن هناك ولو سجل واحد عن أي اسم أو نشاط يهودي. والسبب في ذلك يعود كما يبدو، إلى أن اليهود، نظراً لتقدمهم أكثر من العرب في عصرهم، استخدموا الرق أو سعف النخيل أو أي مواد أخرى قابلة للتلف لتسجيل وثائقهم ومراسلاتهم، فمن النادر أن تبقى مثل هذه الأشياء في محيط العفن الرطب بالواحة. وكانت الأسماء والنصوص العربية التي ليس لها شأن كثيرة جداً وبدرجة كافية. ومن بين الصور كان وعل الجبل يحتل مكان الصدارة دون منافسة، مع وجود البعير أو البقر الوحشي أحياناً، أو صورة لإنسان من أجل التغيير.

لقد كان ذلك المساءُ مخيباً للآمال إلى حد ما، ولكن ما زال لديّ خيوطٌ كثيرة في قوسي، إذ إن الأجراف أعطتني الكثير من الفرص المثيرة لدراسة امتداد الأرض. فوراء الدنانة والصفصافة كان خط الأجراف يمتد بجبل الوطى الذي له خصائص مغناطيسية، حسب ما ظهر من سلوك بوصلتي. ومهما يكن من أمر فمن هنا كنت أتمتع بإلقاء نظرة شاملة على الواحة، حيث كانت قلعة مرحب في الناحية الشمالية - الشرقية تقريباً وضاحية شريف نحو الشرق - شمال - شرق. وإلى البعيد كانت قمة الجبل الأبيض تمتد من جهة الشرق، بينما تحتي مباشرة كانت قرية بشْر ونخيلها يقومان مقابل سفح صخرة القلعة. وإلى اليمين قليلاً من هذه المجموعة تمتد العيون التي

ذكرناها من قبل بما فيها عين علي في بقعة تقول الروايات عنها إن سيدنا علياً -وهو صهر الرسول (صلى الله عليه وسلم)- قد ذبح في معركة مرحب الوحيدة زعيم اليهود. وعين إبراهيم، هي المروى، أي المصدر الرئيس لمياه الشرب في القرية، (فمعظم هذه العيون ذات طعم معدني غير مستساغ) في حين توجد عين أخرى، وهي عين الراية التي تبين الموضع الذي غرس فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) رايته. ويمتد جزء قرية أم كدا على التوالي إلى الجنوب - الجنوب الغربي والجنوب - الجنوب الشرقي، بينما قرية رُوَان وأحياناً تُنطق روال التي تجثم على جرف مرتفع في واديها، تمتد إلى الركن الشمالي - الغربي من الواحة، بينما قمم القُرين الثلاث البارزة والمكّونة من الحجر الرملي تبدو وكأنها ترتفع عالياً فوق سريرٍ من سعف النخيل في وسط الحوض.

وكان اليوم التالي مخصصاً للتجول في الحرة الكبرى، لزيارة موقعين اثنين قيل إنهما مليئان بالنقوش، حسبما يظهر من اسميهما حقيقةً؛ وهما، المكتب وأبو كتيبات، وبرفقة ويبان ورجل من أتباع الأمير يسمى عبد الله، ركبنا جميعاً على الحمير، ومررنا عبر الحوض وعلى واحد من روافده يسمى شعيب الزيدية الذي أتينا فيه على مزرعة العمينى الصغيرة، التي تحتوي على بئر وبستان نخيل وبعض حقول الذرة. وهنا صعدنا إلى الحرة نفسها، حيث كانت

قناة الزيدية عن يميننا، وشعيب هلهل -الأكبر أهمية- عن يسارنا، وفيه بستان نخيل صغير. وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى مزرعة عين القصبة وينبوعها وهي بقعة ذات سحر عظيم، بغزارة شجر القصب الطويل وسط الأزهار المجنحة، ووفرة نمو القصب والبردي الكثيف (القرت)، ناهيك عن حقول الذرة على طول خط مسيرنا.

وسرعان ما وصلنا إلى نهاية هذه البقع المليئة بالزراعة، وخرجنا إلى المنطقة البركانية الجرداء الخالية من المياه، حيث صارت قناة هلهل الآن على يميننا تجري نحو المناطق المرتفعة في الحرة وبعد ذلك وصلنا إلى منخفض المكتب الصخري في منطقة في أعلى مجراه بالأرض الأكثر قسوة والصخور الضخمة التي تسد الوادي لتشكل بركة من المياه المالحة، والتي يسقي منها البدو ماشيتهم وقطعانهم من قديم الزمن. وعلى الصخور تركوا سجلاتهم الثمودية، التي قمت كما ينبغي بنسخها وتصويرها في أثناء راحتنا للغداء.

وبعد ذلك توجهنا نحو الجنوب - الغربي لهدفنا الثاني على طول مسار ضيق للحمير يمر من خلال تلك الصخور الجلمودية في هذه البرية السوداء التي لانهاية لها. لقد مضى ما يزيد عن ساعة حتى وصولنا إلى (أبو كتيبات)، وهو غدير (أي بركة) في قناة شعيب سدير وعلى عكس المكتب، الذي كان جافاً من ناحية عملية في هذا الوقت، على الرغم مما قيل إنه يحتفظ بمياه وافرة لشهور في فصل

السيول الغزيرة. وقد وجدنا البركة هنا مليئة بالمياه، وتشكل بحيرة بيضاوية طولها ١٠٠ متر ومتوسط عرضها ٥٠ متراً، في مشهد أكثر عظمة وجلالاً بين جبال البازلت العالية والمنخفضة على الجانبين، والتي كوّنت الصخورُ الجلمودية المتساقطة منها في طرف اتجاه مجرى التيار ما يشبه السد تقريباً ليحجز مياه السيول. وهنا أيضاً كانت توجد نقوش كثيرة على الصخور، وقد كانت كلها باللغة العربية وليست ذات شأن كبير، وربما كانت من عمل الحجاج الذين يتركون الطريق الرئيس للتزود بالمياه.

إن شعيب السديرة ينضم بصورة كاملة إلى شعيب الزيدية في حوض خيبر، وقد سرنا في قناته المليئة بالشجيرات في هذا الاتجاه لبعض الوقت قبل أن نقطع بالعرض في مسارٍ أكثر نعومة من الحرة نحو طريق المدينة الرئيس، حيث وجدنا سيارة اللاند روفر في انتظارنا بناءً على التعليمات، وسط الزرائب والحفر (العمايِر) التي تحد الطريق.

والمنطقة التي مسحناها خلال هذه الجولة كانت كلها تقع تقريباً شرق خيبر، وعند الاقتراب من بركة (أبو كتيبات) كنا قد أزعجنا قطيعاً من الغزلان (الأديمي) والتي صوب عليها ويبان بندقيته، فأصاب واحدة من إناثها.

وقد تُركنا وشأننا خلال وجبة العشاء، وبعدها ذهبنا بدعوةٍ لتناول القهوة في منزل تاجر كبير بالقرية. وكان عبد الله الهندي، حسب ما يظهر من اسمه، مواطناً هندياً من أهل المدينة، وقد استقر به المقام هنا منذ أمد طويل، وازدهرت تجارته أيضاً. إنه الآن أحد مُلاك الأراضي الكبار، حيث اشترى قطعاً من الأراضي وعدداً من بساتين النخيل من مُلاكها البدو وطوّرها بطريقة ذكية.

ومن بين ضيوفه الآخرين كان قاضي خيبر -الشيخ علي أبا الخيل- وهو من عائلةٍ كان منها أمراء ذات يوم في بريدة، وكان يميل لاحتكار الحديث. وقد ناقشنا التاريخ المحلي، والنقوش، وشؤوناً أخرى ذات اهتمام عام جاءت من حقيقة أن مضيفنا كان يمتلك جهاز مذياع (راديو) ويستمع بانتظام للأخبار من مراكز عربية مختلفة. وفي مواسم السيول الغزيرة - حسب ما أخبروني - تتدفق عيون خيبر في جداول مائية تشبه الأنهار إلى حد كبير، والتي توجد فيها أسماك ضخمة يصل طولها إلى قدمين أحياناً في البرك المختلفة، وتُصاد للأكل. وبالإضافة للتمور كان القمح والدُخُن (وهو نوع من الذرة) يُزرع على نطاق واسع، وتخضع أيضاً لزكاة العُشر، والتي تُجمع عيناً من قبل بعثات تمثل أمير حائل.

وكان من الصعب الحصول على أي فكرة محددة تحديداً دقيقاً عن كميات هذا العُشر، ولكن النتيجة العامة من سماع الكثير من

المناقشات عن هذا الموضوع توحي بأن نصيب الحكومة من محصول التمور في موسم عادي قد يصل إلى ٣٠٠ حمْل جمل (والحمل يتكون من فردتين) أو وحدتين، وكل وحدة تزن ٧٠ وزنة وهي التي تعادل محلياً كيلوغراماً تقدم للأمير وموظفيه في حائل بالإضافة إلى رسوم أخرى قدرها ١٠٠ حمل إضافية لتسديد نفقات البعثة التي تجمع هذه الضريبة، وهي تسافر دائماً في أبهة وفخامة، وعلى رأسها أحد كبار الرجال. وهكذا يصل عُشْر التمر إلى حوالي ٥٦٫٠٠٠ كيلو غرام، على أساس إجمال المحصول السنوي وقدره ٥٦٠٫٠٠٠ كيلو غرام أو ٥٦٠ طناً.

ويتم تقدير عُشر محاصيل الحبوب بنفس الطريقة، ولكنه يباع محلياً من قبل جامعيه، الذين يأخذون نصيبهم نقداً. ومن الطبيعي أن يختلف هذا المبلغ من عام إلى عام، على حسب أسعار السوق للدُخن والقمح، ولم يكن بمقدور عبد الله الهندي أن يعطيني رقماً متوسطاً تقريبياً لنصيب الحكومة. وتقديري العام هو أن المساحة المزروعة بمحاصيل الحبوب في المنطقة لابد أن تكون واسعة في أي سنة طيبة.

وطبقاً لما ذكره عبد الله فإن عدد السكان القاطنين في الواحة لا يزيد عن حوالي ٣٫٠٠٠ نفس، موزعين على القرى السبع في الحوض وهي: - قرية البشْر (وهي المركز الإداري)، وأم كدا،

وروان، ونتاح، وأبو واشع، والوجده، والوادي. وتضم الأخيرة حوض وادي الغرس فوق التقاء روافده الكثيرة، وتوجد قرية زبران على ضفته اليمنى. وقد قدّر عبدالله البدو الوافدين في موسم خراص التمر بما يتراوح بين ٥٠ر٠٠٠ و ٦٠ر٠٠٠ شخص، وهذا يمكن أن يكون تقديراً معقولاً، بحكم المنطقة الواسعة التي تغطيها زرائبهم. ولا ريب أن الكثير منهم كانوا مجرد زائرين، يأتون لشراء ما يحتاجونه من التمر للسنة القادمة. ومن ناحية أخرى كان تقدير الأمير - بصورة عرضية - للسكان المستقرين حوالي ١ر٠٠٠ رجل بالغ، وهذا قد يعني تقديراً أكبر لمجموع السكان مما ذكره عبدالله، أي حوالي ٤ر٠٠٠ شخص أو أكثر قليلاً.

واليوم التالي كان مخصصاً لفحص طويل وأشد تعباً للمناطق المجاورة مباشرة للواحة. ومن حسن الحظ كان حماري "العَجْلة" أو "السريع" يتمتع بخطة ممتازة، ويتحرك فوق المسارات الصعبة بسلاسة وبمعدل سرعة ثابت. وقد رافقني ويبان أيضاً في هذا اليوم، علاوة على رجل الأمير - ويدعى عبد الله - وهو من قرية الزلفي في نجد، وكان معنا أيضاً رفيق ثالث، وهو مطيري من قرية البشْر، الذي كان على دراية حسنة بالمنطقة التي سوف نفحصها. ولم يكن أي من رفاقي من جماعة المدينة مهتماً بصورة كافية بمنطقةٍ لم يزرها أبداً من قبل حتى يود مرافقتنا في يوم عمل طويل، وظلوا جميعاً

في السكن لسعادتهم، وهم يستقبلون ضيوفهم من القرية حول نار القهوة. وبعد أن تجازونا عينين من عيون الواحة (عين الراية وعين الدفيفة)، صعدنا وادي شعيب الذي يماثل شعيب الزيدية، على الرغم من أن الاسم يُطلق فقط على الامتداد العلوي للأخير، بعد التقائه بشعيب السديرة. والجزء السفلي من الشعيب كان كثيف النخيل حتى عين الدفيفة، التي يشترك في ملكيتها صديقي عبد الله الهندي، كما يشترك أيضاً في ملكية البستان الذي يعتمد عليها، والذي اشتراه منذ بضع سنوات مضت بـ ٣٠٠ ريال.

وفيما وراء النخيل، أتينا مرة أخرى على حقول الذرة في العمينى، حيث بدأنا ننحرف عن مسارنا في اليوم السابق لنمر من خلال حقول ذرة الغياب، التي كان الفلاحون منهمكين بالعمل فيها. وكان المطيري لا يعرف معنى كلمة "قتنى" التي استخدمها داوتي للعمال الزراعيين. هذه القطعة الصغيرة من الأرض، مع بئرها، كان قد اشتراها وطورها أصلاً عبد الله الهندي، ولكنه باعها مؤخراً لرجل من أم كدا، وهو محمد بن حيدر الحاجي.

وعندما اقتربنا من عين وأشجار قصب هلهل في قناة تحمل نفس الاسم، رأينا صقراً جاثماً على جُرُفٍ قريب، وقام ويبان، المستعد دائماً ببندقيته، بإطلاق النار عليه ولكنه أخطأه. وبعد حوالي نصف ساعة من هذا المكان أتينا على واحد من أهدافنا الرئيسة لرحلتنا،

وهو سد المَشْقُوق الذي يمتد في شعيب بنفس الاسم. وبعد الحَصيد وقصر البنت، كان هذا السد بناءً مخيباً للآمال، إذ لا يزيد ارتفاعه عن ستة أقدام وسمكه خمسة عشر قدماً، وطوله ١٤ ياردة بين الجبلين الصخريين المنخفضين على الجانبين، كما أنه كان مشيّداً بصورة بدائية من الحجارة والأنقاض وجذوع الأشجار، وقد فتحت السيول ثغرة واسعة فيه حوالي ثلاثين ياردة في الضفة اليمنى، حيث تم بناء جدار قصير من الصخور لمنع مياه السيول من الانتشار فوق الأرض المجاورة. وربما كان المشهد الأكثر إثارة هو تلك المنطقة الصغيرة من الزراعة المعتمدة على بئرين في اتجاه "مجرى التيار" أمام السد. وكانت هناك أيضاً بعض البيوت المتناثرة حول الحقول في الأرض المرتفعة.

هذه القطع يملكها شخص يُدعى علي بن أحمد من قرية بشر، ومن الواضح أنه قد طوّر سداً وجميع ما يلزم في السنوات الأخيرة نسبياً، على الرغم من أنه قد يكون من المؤكد أن القدماء لم يهملوا أيضاً الإمكانات الواضحة لهذا الموقع. وكان هناك نبات الذرة ينمو بصورة جيدة في مساحة طولها ٥٠٠ ياردة وعرضها ٢٥٠ ياردة، وشعيب المَشْقُوق رافد من روافد شعيب هلهل، الذي يدخله في بستان نخيل مررنا به في طريقنا إلى هنا.

وصلنا بعد عشرين دقيقة من الركوب اليسير على منحدر من الضفة اليمنى للشعيب إلى جبل كنا نطل منه على حوض نقرة الحرضة الكبير، الذي يُحاط بالكامل بجرف الحرّة الذي يرتفع إلى خمسين قدماً، وتنتشر فيه آبار كثيرة تخدم منطقة زراعية واسعة تربتها من رمل خصب ممزوج بذرات الحمم البركانية المتحللة. وكان هناك في هذه المنطقة وحولها صخور كثيرة معزولة من البازلت والتي بدت كما لو أنها سوف تعطينا بعض النقوش، وأول واحدة فحصناها أعطتنا ذلك فعلاً، وكذلك نفس الشيء في الصخور الأخرى. ومنها جمعت محصولاً مناسباً من النصوص الثمودية، معظمها أسماء شخصيات، تعود إلى عصرٍ موغلٍ في القدم عندما كان مستوى العلم ومعرفة القراءة والكتابة بين العرب أعلى بكثير مما هو عليه اليوم. وبلا شيء يكتبون عليه غير الصخور استطاعوا بصورة جيدة وكافية أن يحافظوا على إفادة أصدقائهم (وأعدائهم) بأنشطتهم البسيطة.

ومن المحتمل أن يكون مؤلفو هذه النقوش هم أول من امتلك وزرع حوض الحرضة هذا، الذي يشكل بروزاً واسعاً من الضفة اليسرى لشعيب الحرضة، ينزل إلى أسفل على طول الجانب البعيد من سلسلتي جبال صفر والأحْفَرَة في الشمال - الغربي ليلتقي بشعيب الأحْفَرَة، على الجانب البعيد من نفس سلسلتي الجبال ومن

جبل آخر يسمى دهام، في طريقه إلى قناة وادي الغرس الرئيسة. وفي قاعدته يبلغ هذا البروز أكثر من ميل ونصف، وينزل إلى أسفل بانحدار شديد نحو الشرق إلى أن ينتهي في لسانٍ اتساعه حوالي ٥٠٠ ياردة، وإجمالي طوله حوالي ميلين. وفيه يوجد حوالي اثنتي عشرة بئراً، بها ماء في عمق قامتين فقط. وفي هذا الوقت كانت واحدة فقط صالحة للتشغيل لري رقعة واسعة من الذرة اليافعة قرب اللسان الضيق سابق الذكر. والآبار الباقية والحقول التي تُروى بها كانت تبدو مهجورة، أو ربما تركت للراحة انتظاراً لأمطار الشتاء وسيوله التي كانت قليلة أو نادرة حتى الآن. وكانت غربان الصحراء بنوعيها موجودةً بأعداد هائلة، بيد أن علامة الحياة الوحيدة الأخرى هي وجود الجماعة والثور الذي يشغل البئر الوحيدة والرجل المسؤول عنها.

وعند استئناف سيرنا، سرعان ما أتينا إلى النقطة التي يخرج فيها شعيب الحرضة من الحوض، وبعد ذلك بوقت قصير جداً وصلنا بعض المنخفضات ذات المياه المتدفقة ببطء والتي تصب فيها سيول شعيب هلهل في طريقها للالتقاء بوادي الغرس. وعند خروجها من حلقة جُرُف الحرّة، وعلى كلا جانبي القناة توجد بساتين النخيل الغنية لكل من نتاح وأبو واشع، وحقول الذرة في القريتين يمتد أمامنا حتى حافة جبل دهام إلى الغرب منا. وبعدهما تقع بحيرة حقيقية،

تحدها نباتات البَرْدي والقصب، التي عبرناها على جسرٍ ممهد بصورة غير دقيقة، عرضه عشرة أقدام، لنصعد إلى الحرة عبر ممرٍ منخفض. ومن هذا نزلنا مرة أخرى في سهل طيني مالح واسع، يسمى سهلة، التي تشكل جزءاً من حوض خيبر، ولم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى سفح قلعة مرحب، حيث مررنا من خلال قرية بشر، وبمقبرتها الموحشة الكئيبة، حتى مقر سُكنانا في شُرَيْف.

وفي المساء، بعد العشاء، الذي تناولنا فيه لحم التيس مرة أخرى مثل الليلة السابقة (هدية من الأمير)، قمت بزيارة القاضي، الذي وجدت عنده الأمير وآخرين، يحتسون القهوة وهم مرتاحون. وفي مجرى الحديث أثرت سؤالاً كنتُ شديد الشغف باستقصائه بالكامل حسبما قد يسمح به مضي السنوات الطويلة. إن قراء داوتي سوف يتذكرون أن مضيفيه، خلال إقامته المؤقتة في خيبر، كانا الأخوين محمد وأحمد، ويلقبان بالنجومي اللذين يملكان بيتاً في الشارع الرئيس الضيق القذر بقرية بشر. وفي هذا المساء دلّني المطيري على هذا البيت، وقال إنه يستخدم الآن كمقر للمحكمة المحلية التي تعقد جلساتها فيه، ويرأسها القاضي نفسه. هذا القاضي، نظراً لأنه غريب، لم يكن من المرجح أن يعرف كثيراً عن عائلة كانت تملك البيت منذ زمن طويل قبل عصره، بما أنه كان من أهل بريدة فمن الواضح أنه لم يسمع أبداً عن داوتي. بيد أنه بطريقة أو بأخرى خلال

إقامتي تمكنت من جمع بعض المعلومات المثيرة عن عائلة النجومي، التي زرت بيتها مرة أخرى والتقطت له بعض الصور في المساء التالي. ومن المدهش حقاً أن صديقي الهندي -عبد الله- وهو يعرف كثيراً عن هذا الموضوع أكثر من أي شخص آخر يعيش في خيبر بل إنه كان يرتبط أيضاً بالعائلة.

إن بئر غيهب التي زرتها في ذلك الصباح، كانت في الحقيقة تخص محمد النجومي، ومن المرجح أن هذه هي نفس البقعة التي قضى فيها داوتي يوماً يتنزه مع مضيفه. لقد ذكرت فيما قبل أن هذه القطعة من الأرض قد طوّرها عبد الله الهندي، وباعها مؤخراً إلى رجلٍ من قرية أُم كدا.

إن حقَّ عبد الله في هذه القطعة قد جاء من عائلة النجومي، فربما كان من حفيدة محمد أو أحمد، أصدقاء داوتي؛ والتي من الممكن أنه قد تزوجها ليضمن السيطرة على أرض غيهب التي ورثتها من أبيها عبد المطلوب (أو ربما عبدالمطلب) النجومى، الذي لا أعرف اسم والده. ولابد أنه قد تزوجها في المدينة أو ينبع، حيث إن وصوله لأول مرة في خيبر كان عام ١٩٣٣م. ويبدو أن الزواج قد نشأ بسبب الحاجة لتولي شؤون أرضها وأملاكها، والتي بعد وفاتها في ١٩٣٧م أدارها باسم ابنتها ووريثتها، التي تزوجت صالحاً، أحد أبناء أحمد الخطيب، الإمام المسؤول عن مسجد قرية بشر في وقت

زيارتي. وعلى كل حال فقد ماتت بعد ثلاث أو أربع سنوات، ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الوقت الذي باع فيه أرض غيهب. وقال لي أحمد الخطيب إن أصدقاء داوتي -محمد وأحمد- قد اغتالهما رجل من قبيلة جهينة، الذي فاجأهما بغتة في منزلهما أثناء لعبهما لعبة تسمى "بيع" وربما تكون لعبة النرد. وربما يكون ذلك أمراً ثأرياً، حيث إن هذا الشخص الجهيني ويسمى ابن نُجيم كان مرتبطاً بطريقة غامضة بورثة الأخوين النجومي، اللذين كانا أنفسهما من قبيلة حرب أصلاً. وتظل الحقيقة غامضة؛ وذلك لأن سلالة النجومي قد انقرضت من خيبر، في حين تقول بعض الروايات: إن بعض بقايا العائلة قد استقرت في ينبع حتى يومنا هذا، ولم تتح لي أبداً فرصة تقصي هذا الموضوع.

إن عبد الله الهندي نفسه قد نشأ في قرية بمنطقة كراتشي، التي هي الآن جزء من باكستان، والتي تركها منذ زمن طويل يعود إلى عام ١٩٠٨م، ليؤدي مناسك الحج بمكة المكرمة ويقضي بقية أيامه في جزيرة العرب. وبعد خمس أو ست سنوات في مكة هاجر إلى المدينة، وبعد ذلك بحوالي عشرين سنة تزوج من وريثة خيبر، وانتقل معها إلى بيت أسلافها، ليستقر هناك ويزدهر حاله. لقد كان رجلاً ذا جاذبية وسحر عظيم، وله نظرة فلسفية للحياة، ومع اقتناء المذياع والسيارة يظلّ دائماً على صلة بعالم كان قد هجره من زمن طويل.

وقد قضيت آخر يوم لي بالواحة في اكتشاف قطاعها الجنوبي. وبعد مرورنا على امتداد جبل الدنانة وراء عين الصفصافة وقلعتها، عبرنا جبل الصفصاف بوادٍ ضيق إلى منخفض السبيكي المسطح، الطيني المالح، الذي كان سطحه يلمع ببرك المياه أو الملح الصلب على خلفية خضراء داكنة من أشجار النخيل على طول سفح الجبل المقابل. وقادنا مسار ضيق بين النخيل والجبل إلى بساتين نخيل الوطيح الكثيفة، والتي تُروى من عين البحير، والتي تدفقت منها مياه صافية رائعة بجوارنا ونحن نتغلب على التواءات المسار بين جدرانٍ من البازلت بارتفاع ستة أقدام.

وبعد لحظات قليلة كنا نصعد بصورة حادة على جرف "أم كدا" إلى بوابته الرائعة من العالم القديم، ومن خلفها قمنا بالالتفاف حول القرية، حتى نصل إلى منطقة واسعة مفتوحة على هضبة ضيقة بينها وبين بساتين النخيل. وفي هذه كما في محيط خيبر، كانت تتناثر زرائب البدو من حاصدي التمور، وقد أعطتنا نظرة رائعة على المنطقة المحيطة بها. وكانت قلعة مرحب تقريباً إلى الشمال - الشرقي، بينما كانت رُوّان على جرفها العالي في الشمال تقريباً، وتحتنا مباشرة، إلى الغرب والشمال - الغربي، يوجد مجمع أو ملتقى الأودية الذي تكثر فيه بساتين النخيل، التي سوف نزورها في الوقت المناسب.

وفي أثناء نزولنا من المنحدر تجاه بستان نخيل طيران وجدنا عدة رسومات على الصخر في الأجراف المجاورة، علاوة على بعض النصوص العربية الموجزة وأسماء ثمودية أحياناً. بيد أن بؤرة الاهتمام هنا كانت على عين طيران والكهف المجاور لها، الذي كان مدخله مملوءاً بالصخور والأنقاض المتساقطة. تذكر الأسطورة أن الكهف كان مملوءاً بالكنوز، التي أغرت بعضاً من قوم المنطقة لتقصي الأمر، وأقسم فتى من ضمن الزحام الذي تجمع حولنا، عندما كنا نتأمل في الموقع وما حوله، مؤكداً لنا أن والده واثنين من الرجال الآخرين، أثناء حفرهم في الطرق المؤدية للكهف، قد هاجمهم التنين الحارس للكهف. وكان ذلك عقرباً -كما قال- كبيراً مثل الثور، وماتوا جميعاً من جراحهم.

ولم يكن لدينا وقت ولا رغبة لنجرب العناية الإلهية في البحث عن كنز غير محتمل، فواصلنا طريقنا بين نخيل طيران وبُحير إلى منطقة واسعة مكشوفة، توجد فيها قرية صغيرة تسمى الدكاك بناها محمد الفرحات حديثاً لنفسه، ولأسرته وأتباعه في زياراتهم أيام الحصاد لخيبر. وهو شيخ قبيلة عيضة من اتحاد قبائل عنزة. ولم يكن هناك سوى اثني عشر بيتاً صغيراً مع مبنى أكثر اتساعاً ليستخدمه الشيخ نفسه، بيد أن المكان كان في هذا الوقت خالياً تماماً من الناس. ووراءها تقع قرية أخرى صغيرة تسمى السلالم التي مررنا منها إلى

حزام آخر من النخيل وأنقاض قرية قديمة قرب تل بارز. وهذا ذكّرني بهضبة مشابهة في منطقة المدينة، التي تخصصها الأحاديث المحلية لليهود، وقررت أن نجعل توقفنا في منتصف النهار هنا، لفحص إمكانياتها. إن التل والأنقاض تعرف باسم قصر السلامة، ولكن خبرائي المحليين لم يستطيعوا تنويري بمعلومات إضافية عن تاريخه أو قصته، ولم أجد شيئاً ذا بال في أنقاض مباني البازلت أو فوق التل، الذي كان مغطى تماماً بالتراب حتى إنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كان ذلك طبيعياً أو اصطناعيا، وربما يكون الاحتمال الثاني صحيحاً، وفي تلك الحالة قد يكون الموقع معبداً صغيراً في هذه القرية.

ومن قمة التل، وأثناء تناولي طعام الغداء من البسكويت والأناناس المعلب، مع الشاي حتى يسهل بلعهما، تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على المنطقة التي سوف نمر خلالها عندما نستأنف جولاتنا في الغد. وإلى البعيد نحو الغرب، قرب السكة الحديدية، كانت ترتفع للسماء القمم العالية لكل من المخطط و الحصيّن والغرّة ويمتد حقل الحمم البركانية تماماً حتى سفوحها، وفي نفس الاتجاه يبرز تل أصغر يسمى جبل السورة يبيّن موقع قلعة الحجاج القديمة التي تسمى قلعة السورة ومحطة السكة الحديدية بها. وعند الالتفاف للشمال - الغربي كانت تنتشر سلسلة من الجبال الشاهقة هي الحِصَار وأثمار

وطَرْبان وضريب على حسب هذا الترتيب من اليسار لليمين، والأخير يحدد اتجاه سهل الصحن في الطريق إلى العلا. وإلى الشرق قليلاً من الشمال، كان قمع غمرة علامة بارزة لرحلتنا القادمة إلى قرية وآبار الحفيرة في الشمال تقريباً على خط مستقيم ومنزل آخر لشيخ قبيلة عيضة.

وسوف نسير في أرض هذا الشيخ لبعض الأيام القادمة، حيث دخلناها عند وصولنا إلى رأس وادي لحن حيث خرجنا من نطاق منطقة قبيلة حرب. وعند استئناف سيرنا، سرعان ما ضللنا طريقنا في متاهة من المجازات الضيقة المسدودة وسط بساتين النخيل، واضطررنا لإعادة تتبع خطواتنا إلى قصر السلامة عندما جرّبنا طريقاً آخر بمزيد من النجاح، وتجاوزنا بدورنا عيون السلالم وعين أم البيضة، حتى وصلنا إلى بئر قديمة تسمى مطيراً اعتاد سكان خيبر أن يجتمعوا فيها قبل أيام حكم ابن سعود، للاحتفال بألعابهم القديمة وتضحياتهم الخرافية في المروج المنحدرة إلى القناة، التي تتجمع فيها مياه خيبر من اتجاهات كثيرة مباشرةً قبل الالتقاء مع وادي الغرس. وكان من الواضح أن رفاقي المحليين كانوا صغاراً في السن بدرجة كبيرة بحيث إنهم لم يشاركوا في الحقيقة في مثل هذه الاحتفالات ويبدو أنهم كانوا يتحرجون قليلاً من أوصافها، ومن المحتمل أنهم كانوا لا يحبون الحديث عن مثل هذه الأشياء الشريرة في ظل الدعوة

الإصلاحية. وفي هذه النقطة كان اتساع الوادي يبلغ نحو ألف ياردة، وبه مجرى مائي يتدفق بقوة، بينما وراءه تنتشر كتل بساتين نخيل الروّان المكتظة. إنني لم أزر القرية في جرفها العالي المنحدر، وقد استدرنا شرقاً للعودة إلى البيت.

وبعد عين القُوَير وهي عين مكتشفة حديثاً ولم يحاول الناس تجربة الزراعة بمائها بعد، أتيت إلى معلم بارز من الحجر الرملي في الطرف الشمالي - الغربي من جبل القرين وهو لوح هائل من الصخر يقف بصورة أفقية، وغير قائم على أساس وطيد من جميع الوجوه، على حافة الجرف المنخفض. وتقول الروايات إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد استراح في الظل الوارف لهذا البروز أو النتوء خلال حملته على خيبر، ومن هنا يمكن تفسير اسمه ثوير النبي، وهو مصطلح يصعب تفسيره، على الرغم من أنه ربما يكون إشارة إلى معنيين في الانفجار البركاني أو الانتفاضة البشرية أو الثورة. وعلى واجهة الجرف توجد نقوش عربية طويلة بصورة غير عادية تتكون من سبعة خطوط، وهي قد تعرضت، لسوء الحظ، للتلف والتآكل بسبب العوامل الجوية إلى درجة أنه كان من المستحيل نسخها. وربما تكون قد حوت بعض الرموز لأسطورة طواها النسيان. وتسلقت إلى اللوح المعّلق، بيد أنني لم أجد شيئاً ذا بال عليه إلا خربشة عربية صغيرة. وكان هناك بعض رسومات الحيوانات على الجرف، والتي حاولت تصويرها ولم أنجح.

والآن مضينا مباشرة لقلعة مرحب التي ترتفع بجلال فوق نخيل الوادي الكثيف، حيث دخلنا قرية بشر، مما يبدو أن بوابتها الوحيدة الباقية، باب خوخة، إذا كان في الحقيقة يمكن أن يطلق عليه بوابة على الإطلاق؛ إنه بالأحرى نفق محفور في الطابق الأرضي لمبنى هائل جداً يبرز من وجه جرف مرحب المنحدر تجاه النخيل، والذي يفصله عن الطريق هنا جدار بازلتي سميك. وفي المبنى، أو في بيت مجاور له، كنا قد دُعينا لشرب القهوة والشاي من قبل ابن صاحب البيت، حسن غوث، الذي نسكن فيه بضاحية شريف، وكان معه أحد أقارب دليلنا مطير، وهو رجل يسمى أحمد، وكان إماماً لمسجد الجامع المحلي، وكان يُعرف بصورة عامة باسم أحمد الخطيب (أي الواعظ).

كان الحكم السلفي يذيب بالتدريج الفخر بالقبيلة والعادات القبلية القديمة في هذه القرى الصحراوية النائية، ولكن أحمد ومطيراً كانا يفخران بنسبهما، وكانا يستطيعان أن يأخذا باعتزاز شجرة نسبهما لحوالي عشرة أجيال مضت، ربما نحو ٢٠٠ سنة منذ استقرار العائلة في خيبر. وأوضّح ذلك هنا لفائدة القراء الذين قد يكونون مهتمين بجداول علم الأنساب، والتي كانت ذات يوم أمراً ذا أهمية بالغة في النظام العربي، على الرغم من أنه يوجد اليوم قلة من أعضاء الأسر العريقة، ومنها أسرة آل سعود، الذين يشغلون

أنفسهم بمثل هذا الأدوار البسيطة في عالم اليوم المزدحم بالمغامرات والمنافسة. ومهما يكن من أمر، فإن شخصاً اسمه حسين في الماضي البعيد رُزق بولد اسمه حسن، الذي أنجب بدوره علياً، الذي أنجب حموداً، الذي أنجب زاهر الأول، الذي كان له ولدان صالح ومطير. وقد أنجب أكبرهما عليان، الذي أنجب جزاعاً، الذي أنجب عبد الرحمن، الذي أنجب أحمد الخطيب. أما مطير، الابن الأصغر، قد أنجب زاهر الثاني الذي أنجب عياضاً، الذي أنجب علياً، الذي أنجب مطير الثاني وهو دليلنا. ومن الواضح أن الأخير ليس لديه أبناء أحياء في هذا الوقت، بيد أن أحمد لديه ما لايقل عن سبعة من الأولاد، أكبرهم، حامد، وكان موظفاً في مكتب الأمير، بينما كان الثاني، حمود، أيضاً في خدمة الحكومة في وظيفة صغيرة المرتبة. وكان الباقون جميعاً أطفالاً صغاراً في هذا الوقت وهم: صالح، وعبد الرحمن، وراشد، وإبراهيم، وعبد الكريم. وهكذا كان أحمد ومطير أولاد عمومة في الجد الرابع.

وقد صعدنا الآن الدرج إلى قلعة مرحب لنُحيِّيَ الأمير ونودعه. ومعه أيضاً شربنا الشاي والقهوة، وقدمت له شكري على كل ما أولاه لنا من كرم الضيافة والمساعدة خلال إقامتنا المؤقتة كضيوف عليه في خيبر، وأخبرته باختصار بما فعلته خلال إقامتي، وانطباعاتي العامة عن منطقته، علاوة على الأفكار التي كانت عندي

بشأن تطويرها في المستقبل، والتي تعهدت بتزكيتها وتقديمها لعناية وزير المالية، عبد الله السليمان، عند عودتي إلى مكة. وعندما نهضت للاستئذان والخروج، أسعدني الأمير بقوله إنه يريد أن يرافقنا إلى أقصى مسافة ممكنة حتى أراضي المرعى التي ترعى فيها إبله وأغنامه، وحيث أرسل عائلته مؤخراً للتخييم في البر أثناء الإجازة، وقد رحبت بهذه الفكرة، في حين حذرته من عادتي في السير ببطء حتى يمكن أن أرى المنطقة بالتفصيل وأدّون كل معلم من معالمها لرسم خرائطي. ولم يكن لديه اعتراض على ذلك، حيث تمنى أن تكون زيارتي لمصلحة منطقته.

وفي طريق عودتي، بددت الوقت سدى في القرية، حيث قمت بزيارة مسجدها الكبير، وسوقيها الاثنين، السوهان والرحبة، اللذين وطأتهما خطى أقدام داوتي قديماً. وقد التقطت أيضاً صوراً فوتوغرافية لبيت النجومي، الذي عاش فيه داوتي والمدرسة المقابلة له في الشارع الرئيس. وقد غربت الشمس قبل أن نصل إلى منزلنا لأداء الصلاة وتناول العشاء. لقد قضيت أربعة أيام فقط في خيبر، لم تتخللها لحظة واحدة من الكسل أو التراخي.